القصيدة الأندلسية
صدى الإنجازات والانتكاسات

آمنة بن منصور
أستاذة الأدب الأندلسي والحضارة المتوسطة
جامعة تلمسان - الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
آمنة بن منصور ، القصيدة الأندلسية: صدى الإنجازات والانتكاسات.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ٩٦ – ١٠٠.
(www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

كان الشاعر العربي الجاهلي لسان قبيلته وبوقها الإعلامي الذي يحكي مثالبها ويتغنى بأمجادها ، فيرهب أعداءها ويفحم خصومها ، وهو ما جعله يحظى بمكانة عالية ما دام يتحدث بلسان قبيلته " فإذا انشغل عنها بنفسه ، لم يعد له ذلك المقام الرفيع ؛ كما كان شأن عنترة الذي شغل في شعره بنفسه عن قبيلته ، وشغل بقضيته الشخصية أكثر مما شغل بقضايا القبيلة ومصالحها"[١] فعنترة صوت الفرد ، وعمرو بن كلثوم صوت القبيلة التي يتردد صداها في كل أشعاره ، هو القائل:

أَلا لا يَجْهَلَن أَحَدٌ عَلَيْنا ... فَنَجْهَلَ فَوقَ جَهلِ الجَاهِلِينا[٢]

وبعد تفكك النظام القبلي وجد الشاعر متسعًا ليعبر عن خلجات نفسه دونما قيود ، فراح يفخر بشجاعته وبسالته حتى إذا لم يجد بم يفخر فخر لمجرد الفخر ، بل إن هناك من الشعراء من أعلنوها صراحة أنهم يفخرون بأنفسهم لا بأقوامهم ، كما فعل المتنبي حين قال:

لا بقَوْمِي شرُفتُ بلْ شرفوا بي ... وبنَفسِي فخرتُ لا بِجُدُودي[٣]

هكذا بدأت النزعة القبلية ، أو لنقل الوطنية تخفت ، وأصبحنا نجد في كل شاعر عنترة ، أما عمرو بن كلثوم فلا نكاد نجد له أثرًا ، وقد يعزى السبب إلى كون البلاد العباسية جمعت أجناسًا كثيرة جاءت من كل البقاع ، لذلك لم تعد تعني لها الوطنية والانتماء الشيء الكثير ، ولأجل هذا لا نجد في الشعر العربي المشرقي القديم قصائد تمجد الوطن وتحكي بطولاته وحتى انتكاساته ، اللهم إلا النزر القليل ، ومن ذلك صرخة ابن الرومي حين سقطت البصرة وقد صور في قصيدته العصماء خراب المدينة وتشرد أهلها ، وما لحقهم من شر و هوان ، فقال:

ذَادَ عَن مُقْلَتِي لذيذَ المَنامِ ... شغلها عَنه بالدّموعِ السِّجَامِ
أيّ نومٍ مِنْ بعدِ ما حَلّ بالبَصرَة ... ما حلّ من هَنَاتٍ عِظَام ؟
أيّ نومٍ من بعدِ ما انْتَهَكَ الزّنْجُ ... جِهاراً مَحَارِمَ الإسلام ؟[٤]

كما نسجل موقف أبي تمام في فتح عمورية حين أنشد:

السّيفُ أَصْدقُ إنْباءً مِنَ الكُتبِ ... في حَدّهِ الحَدّ بيْن الجدّ واللعِبِ[٥]

ولا ننسى المتنبي في قصائده التي سجل فيها بطولات سيف الدولة ، غير هذا لا نكاد نجد قصيدة تصور الملاحم أو حتى الانهزام ، بيد أن الأمر يختلف في الأندلس ففيها الشعر الذي خلد الوقائع ، والانجازات الأندلسية ، وفيها كذلك القصائد التي أدمت الأفئدة الحية.

مما لا ريب فيه ؛ أن القرن الخامس الهجري هو أكثر القرون خطورة في التاريخ الأندلسي ؛ ففيه " أصبحت الأندلس دولاً متعددة ، لكل دولة حاكم وإدارة وجيش وحياة أدبية وفكرية شبه مستقلة ، وأصبحت العلاقات بين الحكام قائمة على التحرز و الحذر ، وإنفاق الأموال في بناء الحصون".[٦] فكيف تقوم أمة لسان حالها التشتت ؟ هذه الفرقة وهذا التشتت ، هو الذي نحا بالمسلمين في الأندلس منحى آخر غير الذي ترسمه فاتحوها ، وصانعو حضارتها ، فملوك الأندلس كان أول همهم ترسيخ جذورهم في ممالكهم ، وضمان بقائهم فيها ، الأمر الذي جعل أعين الطامعين والطامحين من يهود ونصارى تتربص بهم بأعين لا تنام ، "فانهيار الخلافة وبروز ملوك الطوائف بدل الكثير من

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية   ISSN: 2090 – 0449

العلاقات التي كانت قائمة بين مختلف أصحاب الأديان في الجزيرة ، وهذا التبدل المقرون بانعدام الأمن والطمأنينة دفع جماعات من اليهود للرحيل إلى الشمال"(٧) ، حيث أخذوا في التحالف مع النصارى ضد المسلمين.(*)

هكذا ؛ ضعف حال المسلمين وتجرأ عليهم أعداؤهم ، وما كانوا ليفعلوا ذلك من قبل ، وسيف المنصور بن أبي عامر يقض مضجعهم ، وهو القائل:

رَمَيتُ نفسِي هَولَ كلِّ كَريهَةٍ ... وخاطرْتُ والحُرّ الكريمُ مُخاطِرُ
وإنّي لَزجّاءُ الجُيوش إلى الوَغى ... أسُودٌ تلاقِيها أسُودٌ قوادِرُ(٨)

وكانت أولى الملمات التي أصابت المسلمين" سقوط بربشتر (٤٥٦هـ) على يد الأردمانيين ، وقد أثارت تلك الحادثة مشاعر الفقيه الزاهد ابن العسال ، فصور في إحدى قصائده ما حل يومئذ فقال:

ولقدْ رَمَانا المُشركُون بَأسْهِم ... لمْ تَخْطِ لكِن شأنُها الإصْماءُ
هتكوا بِخَيْلِهِم قصُورَ حَريمِها ... لمْ يبَق لا جَبلٌ و لا بطحاءُ
مَاتتْ قلوبُ المُسلمين برُعْبهِم ... فَحُماتُنا في حَربِهِم جُبناءُ(٩)

فابن العسال يصور فضائع الإسبان و جرائمهم ، كما ينقم على من تولوا أمر البلاد فتقاعسوا عن حمايتها ، جبنًا وخوفًا ، وهذا السميسر يخاطب أولئك الملوك الذين ضيعوا الأندلس فقال:

نـادِ المُلـوكَ و قـلْ لَهُـم ... مَـاذا الـذي أحْـدَثتمُ
أسْـلمْتم الإسْـلام فـي ... أسْـر العِـدا وقعـدْتمُ
لا تنكِـرُوا شـقَّ العَصَـا ... فعصَـا النبـيّ شـققتمُ(١٠)

وكانت الكارثة الثانية سقوط طليطلة (٤٧٨هـ)، وهي " من حيث نتائجها أعظم خطرًا من سابقتها بكثير ، وبها يرتبط التحول الخطير الذي تم في التاريخ الأندلسي فأدى إلى دخول المرابطين ، ثم إلى سقوط دول الطوائف واندثارها"(١١) ، ويعود ابن العسال مجددًا ، ولكن هذه المرة ليس لبكاء بربشتر ، بل لدعوة الأندلسيين إلى الرحيل من الأندلس ، فلا جدوى في البقاء بعد سقوط طليطلة ، يقول:

يـا أهـلَ أنـدلسٍ حُثـوا مَطـيَّكُم
فمَـا البقـاءُ بهـا إلاّ مِـنَ الغَلـطِ
الثـوْبُ ينسـلُ مِـن أطرافِـهِ وأرَى
ثـوبَ الجَزيـرة مَنسُـولا مِـن الوَسَـطِ
ونَحـنُ بـيْن عَـدوٍّ لا يُفارِقنـا
كَيفَ الحَياةُ مَعَ الحَيّاتِ في سَفَطِ(١٢)

ولئن كان ظاهر كلام ابن العسال انهزاميا إلا أنه ، في واقع الأمر ، كان ينظر بعين العواقب ، فالعبرة بالخواتيم ، وهو يدرك أن سقوط هذه المدينة الاستراتيجية في يد الإسبان سوف تقوي شوكتهم. وفي المعنى نفسه يقول شاعر آخر:

يـا أهـلَ الأنـدلسِ رُدّوا المُعـارَ فـمَا
فـي العُـرْفِ عَاريَـاتٌ إلا مُـرَدّات
ألَـمْ تَـرَوا بَيْـذقَ الكُفـارِ فَرْزَنَـهُ
وشَـاهُنا آخِـر الأبيـات شهْـمَات(**)(١٣)

فالأندلس في نظر الشاعر وديعة ولا بد أن ترد الودائع ، ولعل أكثر القصائد إيلاما تلك التي ينسبها المؤرخون إلى شاعر مجهول ، وفيها يقول:

لَثُكْلـكِ كَيـفَ تبتسِـمُ الثغُـورُ ... سُـرُورًا بَعـدَما يئسَـتْ ثغُـورُ؟
طليْطلـة أبـاحَ الكُفـرُ مِنهـا ... حِمَاهَـا إنّ ذا نَبـأ كبـيرُ
و كانـت دار إيمـان و علـم ... معالمهـا التي طمست تنيرُ
فعَـادتْ دارَ كُفـرٍ مُصْـطفاةٍ ... قـد اضْـطربَتْ بأهْليها الأمُورُ
فيـا أسَفاهُ يـا أسَـفاهُ حُزنـا ... يُكـرَّرُ مـا تكـرّرَت الدّهـورُ(١٤)

وبعد أن بكى الشاعر مصاب طليطلة ، راح يذكّر بأن ما أصابها فبما قدمت أيدي المسلمين ، يقول:

أنـأمَنُ أن يَحُلَ بنا انتِـقام ... وفينَـا الفِسْـقُ أجْمَـع و الفُجُـور
وأكـلُ للحَـرَام ولا اضْطِـرَارٌ ... إليـهِ فيَسْـهَلُ الأمْـرُ العَسِـير
يَزولُ السّترُ عَن قوْمٍ إذا مَا ... على العِصْيَان أرْخِيتَ السُّتُور(١٥)

يرى الشاعر أن الجزاء من جنس العمل ، فالفسق والعصيان والفتن هي التي عجلت بسقوط صرح من صروح الإسلام ، ثم أخذ بعدها يعاتب قومه الذين خنعوا وخضعوا فقال:

كفـى حُزنًـا بـأنّ النـاسَ قـالَوا ... إلـى أيْـنَ التّحـوّلُ و المَسِير؟
أنَتْـرُكُ دُورَنـا و نَفِـرّ عَنْهـا ... ولـيْسَ لنـا وراءَ البَحْـرِ دُور؟
ولا ثـمّ الضّـياعُ تـرُوقُ حُسْـنا ... نُباكِرُهـا فيُعْجبُنـا البُكـور(١٦)

والشاعر لا يدعو بأي حال إلى الاستسلام بل إلى القتال ، فإما الانتصار وإما الشهادة ، يقول:

ولا تجْنحْ إلى سِلْمٍ و حَارِبْ ... عَسَى أنْ يُجْبَرَ العَظمُ الكسِير(١٧)

وحين لم يلق آذانا صاغية دعا بصوت عال فقال :

ألا رَجُـلٌ لـهُ رَأيٌ أصِـيل ... بـهِ مِمّـا نُحـاذِرُ نَسْـتجير
يَكِـرُّ إذا السُّـيوفُ تناوَلتـهُ ... وأيْـنَ بنـا إذا وَلّـتْ كـرُور(١٨)

وعلى الرغم من كل ذلك ، فإن الشاعر لم يفقد الأمل في النصر والفرج ، قائلاً:

ونرْجُـو أن يُتـيحَ الله نَصْـرا ... علـيْهِم إنّـهُ نِعْـمَ النّصِـير(١٩)

وفي هذه الظروف العسيرة نظر الملوك ذات اليمين وذات الشمال ، فلم يجدوا بدًا من الاستنجاد بالقائد المرابطي يوسف بن تاشفين(***) ، وكان المعتمد بن عباد السباق إلى عقد التحالف على الرغم من معارضة البعض(****) ، ووقعت معركة الزلاقة ضد الاسبان بقيادة أذفونش ، فكان النصر حليف المسلمين ، وقام ابن وهبون يصور كيف هرب القائد الإسباني في جنح الظلام ، فقال:

نضَـا أدْرَاعَـهُ واجْتـابَ لـيْلا ... يَـودّ لـوْ أنّ طـول الليـلِ عَـام(٢٠)

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية   ISSN: 2090 – 0449

وقال ابن بسام في وصف يوسف بن تاشفين وهو يخوض المعركة:

وواصَلَ السّيرَ إلى الزّلاقَةِ ... وســاقهُ ليَومِهــا مــا سَــاقه
للهِ درّ مِثلِهـــا مِـــنْ وَقعَـــةٍ ... قامَت بنَصْرِ الدّينِ يَومَ الجُمعَهْ
وثـلّ للشـرْكِ هُنـاكَ عَرْشه ... لـمْ يُغْنِ عَنهُ يَومَهُ أذفُنْشه(٢١)

وقال أبو جعفر البلنسي الوقشي نزيل مالقة في مدح يوسف بن تاشفين:

ردي حَضْرَةَ المُلكِ الظّليلِ رِواقُهُ ... لعَمْري فَفِيهَا تُحْمَدِينَ وُرُودا
بِحَيْث إمَام الدّينِ يُوسع فَضْلَه ... جَميعَ البَرَايَا مُبدئًا ومُعِيدا
أعَادَ إليهَا الأنسَ بعدَ شرُودِهِ ... وأحيا لنَا ما كانَ مِنهُ أبيدا(٢٢)

ولم يفت المعتمد أن يشيد بيوم العروبة وبصانع أفراحها فقال:

وقلبـي نَـزُوعٌ إلـى يُوسُـف ... فلـولا الضّـلوعُ عليهِ لطـارا
ويَـوم العُروبـة ذدْت العِـدى ... نَصَـرْتَ الهُـدى وأبَيْـتَ الفِـرَارا
ولـولاك يـا يُوسُـف المُتّقـى ... رَأيْنـا الجَزيـرَةَ للكُفـرِ دَارا(٢٣)

ولا يكتفي المعتمد بالثناء على آسره وسالب ملكه، بل ويبشره بالثواب الذي سيلقاه في الدار الآخرة فيقول:

سَـتلقى فِعَالـكَ يَـومَ الحِسـاب ... تُنـثرُ بالمِسْـكِ مِنْـك انْتِشـارا
وللشـهَدَاءِ ثنـاءٌ عليْـك ... بحُسْنِ مَقامِكَ ذاكَ النّهَارا(٢٤)

وقد لاقت معركة الزلاقة الكثير من التبجيل والتمجيد لدى الشعراء، لا لأنها الوقعة الوحيدة التي انتصر فيها المسلمون، فما أكثر ما انتصروا على النصارى، ولكن لأن توقيتها جاء في مرحلة حرجة من التاريخ الأندلسي، هذه الفترة التي شهدت سقوط أكثر من مدينة أندلسية، فضلاً على الهزائم المتتالية التي أصبحت تنبئ بسقوط للأندلس وشيك، فكانت الزلاقة البصيص الذي أعاد للأندلسيين شيئًا من الأمل. يقول ابن وهبون ساخرًا من أذفونش بعد هزيمته يوم الزلاقة:

فأيْن العجب يـا أذفُونش هلاّ ... تَجَنّبَـتَ المَشـيَخة يـا غُـلام
سَتسْألكَ النّسـاءُ و لا الرّجَالُ ... فخبّـرْ مـا وراءَكَ يـا عِصَـام
أنـامَ رِجَالـكَ الأشـقونَ ؟ كـلاّ ... وهـلْ يُلفَى بـلا رَأسٍ مَنَـام(٢٥)

ثم يصور كيف أن الأرض المستوية أمست هضبة لكثرة الجثث عليها، فيقول:

وصارُوا فوْق ظهْرِ الأرْضِ أرْضا ... كـأنّ وِهادَهــا مِنــهُ رُكــام
عَديــدٌ لا يُشــارِفه حِســاب ... ولا يَحْــوي جَمَاعَتَــه زِمَــام
تَألّفَــتَ الوُحُــوش عَليــه ... فمَا نَقصَ الشرَابُ ولا الطعَام(٢٦)

وبقدر ما سعد المسلمون بانتصارات الزلاقة بقدر ما توجس ملوك الطوائف من عواقبها، فقد رأوا شدة بأس المرابطين في القتال وانتابهم الخوف من أن يستولوا على ملكهم، ولما أعمت شهوة الملك أبصارهم راحوا يتحالفون مع العدو " فقد قام ابن بلقين صاحب غرناطة بمكاتبة ألفونسو السادس. وبادر بتحصين قلعته، فنقده السميسر قائلاً:

صَـاحِب غرنـاطـة سَـفيهٌ ... وأعْلـمُ النـاسِ بـالأمُور
صَـانَعَ أذفـونش و النّصَـارَى ... فـانْظُرْ إلـى رأيِـهِ الـدّبير
وشـادَ بُنيانَـهُ خِلافـا ... لطاعَـةِ اللهِ والأميـر(٢٧)

كذلك فعل المعتمد بن عباد وابن الأفطس والقادر بن ذي النون(٢٨)، فكانوا كما قال ابن العسال:

لـولا ذنوبُ المُسْلمينَ و أنّهُم ... رَكِبُوا الكَبائرَ مـا لهُـنّ فنَـاء
ما كانَ يُنصرُ للنصَارى فارسٌ ... أبدا عليْكم فالذنوبُ الدّاء(٢٩)

ولم تدم فرحة الزلاقة طويلاً حتى سقطت بلنسية سنة ٤٨٨ هـ فكانت ضربة أخرى تلقاها مسلمو الأندلس، وقد عبر ابن خفاجة عن هذه الفاجعة، فقال:

عاثتْ بسَاحَتكِ الظّبا يـا دارُ ... ومَحَـا مَحَاسِنكِ البلَـى والنـارُ
أرْضٌ تقاذفَت الخُطوبُ بأهْلهَا ... وتمَخّضَـت بخرَابهَـا الأقـدار
كَتبتْ يدُ الحُدثان في عَرصاتِها ... لا أنتِ أنتِ ولا الدّيارُ الدّيارُ(٣٠)

وممن عبر عن هذا المصاب الجلل، الشاعر ابن عميرة " الذي أكثر من القول في هذا الباب، حتى ليمكن أن نعده أكثرهم رثاء للفردوس المفقود وفي رثاء بلنسية:

يـا لـكِ عَهْـدًا مَضـى و مُرْتبعا ... كـانَ بـهِ العَيـشُ مِثلـهُ أخضَـر
فـأينَ مِنـاَ مَنـازِل عَصَـفَت ... ريحٌ عَليهَا مِن العِدى صَرْصَـر
ودُونَ شُــقر و دُون زُرقتِــه ... أزرَق يَحكـي قنـاه أو أشـقر

إن ابن عميرة كغيره من الشعراء، عندما يعود بذاكرته إلى الوراء تراءى له طبيعة بلاده كقطعة من الجنة التي حرم منها مواطنوه، وأصبحوا يكتوون بنار الغربة التي تتوقد وتتوهج باستمرار في أعماقهم".(٣١) فقد هال الشاعر الأندلسي مصاب الأندلس وهو يرى مدنها تسقط تباعًا، فراح يصرخ مستنجدًا المسلمين في ربوع المعمور، كما فعل ابن الأبار الذي استنجد بأبي زكريا بن أبي حفص، فقال:

أدركْ بخَيلِـكَ خيـلَ اللهِ أندلُـسا
إن السّـبيل إلـى مَنجَاتِهـا دَرَسـا
وهبْ لها مِن عَزيزِ النّصرِ ما التمسَتْ
فلـم يـزلْ مِنـكَ عِـزّ النّصرِ مُلتمسا
يـا للجَزيـرةِ أضـحَى أهلَهـا جُـزرا
للحادثـاتِ وأمْسـى جـدّها تعسـا
مَـدائن حلّهـا الإشـرَاكُ مَبتسِـما
جَـذلانَ وارتحَـلَ الإيمـانُ مُبتئِسـا
يـا للمَسـاجد عـادتْ للعِـدى بِـيعا
وللنّـداءِ غـدًا أثناءهـا جَرَسـا(٣٢)

فابن الأبار يخاطب الأمير الحفصي خطابا مفعما بالمعاني الدينية، لعله يحرك فيه نخوة الجهاد وليس غريبًا " فالأدب الأندلسي كان يتنفس في جو مشبع بالثقافة الدينية التي تتجلى في مواكبة الشعر لحركة الجهاد، والتحريض على اليقظة، ورد كيد العدو، والقضاء على أسباب الفرقة والنزاع".(٣٣)

ويواصل ابن الأبار استنجاده في قصيدة أخرى، فيقول:

نادتك أندلسٌ فلبّ نداءَها ... واجْعل طوَاغيتَ الصّليب فداءَها
تلكَ الجَزيرة لا بَقاءَ لها إذا ... لمْ يَضمَن الفتحُ القريبُ بقاءَها
إيهٍ بلنسِية وفي ذكْراكِ ما ... يُمْري الشؤونَ دِمَاءَها لا ماءَها
عَجبًا لأهلِ النارِ حلّوا جَنّة ... مِنْها تَمُدّ عَليْهم أفياءَها
جرّدْ ظباك لمَحْوِ آثارِ العدى ... تقتل ضَرَاغمها وتسْبِ نساءَها
أوْلوا الجَزيرَة نصْرة إنّ العِدى ... تَبْغي على أقطارِهَا استيلاءَها(٣٤)

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ولم يتوقف الشاعر الأندلسي عن الاستنجاد وطلب العون حتى سقطت آخر معاقل المسلمين، وقد أورد المقري أبياتًا لأبي عبد الله محمد الفازازي يعبر فيها عن حال الأندلس إذ ذاك، يقول:

الرّومُ تضربُ في البلادِ وتغنمُ ... والجُورُ يأخذُ ما بقيَ والمَغرَم
والمالُ يُوردُ كلّه قشتالة ... والجُندُ تَسْقط والرّعية تُسلم
أسَفِي على تلكَ البلادِ وأهْلِها ... الله يلطفُ بالجميع ويرْحَم[15]

هكذا؛ توالت النكبات وبدأ العد التنازلي لسقوط الأندلس نهائيًا، فسقطت سرقسطة، وشاطبة، وقرطبة، ومرسية، وإشبيلية، ولم تجد صرخات الشعراء صدى لها. وممن رثى المدن الأندلسية التي سقطت في يد الإسبان أبو البقاء الرندي في شعر يتصدع له الحجر، فقال:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد
ولا يدوم على حال لها شان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن
وأين منهم أكاليل وتيجان؟
وأين ما شاده شداد في إرم
وأين ما ساسه في الفرس ساسان؟
كأنما الصعب لم يسهل له سبب
يوما ولا ملك الدنيا سليمان[16]

استهل الرندي قصيدته بمقدمة وعظية وقف فيها واستوقف على حال الماضين، وكيف أن الملك لا يدوم لأحد، و لكن هذا لا يمنع من أن يتفجع المرء ويتألم على فقد وطنه:

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان؟
وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان؟
وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن؟
قواعد كن أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان[17]

وبعد أن فرغ من ذكر المدن الأندلسية كيف كانت وكيف أضحت، راح يعدد جرائم الإسبان في حق المسلمين، ناقمًا في الوقت نفسه على الذين تقاعسوا عن مد يد العون لإخوانهم فقال:

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم
وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيّات لها همم
أما على الخير أنصار وأعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم
أحال حالهم كفر وطغيان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا ربّ أم وطفل حيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد
إن كان في القلب إسلام وإيمان[18]

ولكن الرندي لم يدرك سقوط غرناطة، لأنه توفي سنة ٦٨٤ هـ، ولو أدركها لكرها وبكاها، كما بكى غيرها من حواضر الأندلس، غير أن المقري قد عني بذلك فأورد أبياتا للشاعر محمد العربي الذي شهد حصار غرناطة، قال فيها:

بالطبل في كل يوم ... وبالنفير نزاع
وليس من بعد هذا ... وذاك إلا القراع
يا رب جبرك يرجو ... من هيض منه الذراع
لا تسلبنّي صبرا ... منه لقلبي ادراع[19]

خاتمة

هكذا؛ صورت القصيدة الأندلسية إنجازات الأندلسيين حينا، وانتكاساتهم حينا آخر، فالشاعر الأندلسي لم يقف بمنأى عن الأحداث التي عرفتها بلاده، كما لم تشغله نفسه وطموحاته عن المشاركة الحية والفاعلة، تجاه ما كان يحدث، فكان يشيد تارة ببطل أظهر استماتة في سبيل نصرة الدين، ولو لم يكن أندلسيا، لأن مصلحة الأندلس فوق كل اعتبار، أو بجيش رد كيد الكائدين، كما كان ينقم على شعبه وعلى الحكام لأنهم تقاعسوا فضيعوا البلاد والعباد، ثم إنه أبى إلا أن يطلق آخر زفراته التي اختلطت بزفرات أبي عبد الله الصغير، فرثى الأندلس وودعها وداع المغادر بلا رجعة.

الهوامش:

(١) عنترة بن شداد: فوزي محمد أمين : ١٧٢ .
(٢) ٢-ديوان عمرو بن كلثوم ، دار صادر ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٩٦ : ٦٢.
(٣) ديوان المتنبي ، دار الجيل ، بيروت ، دط /دت : ٢١.
(٤) ديوان ابن الرومي ، شرح أحمد حسن بسج – ط ١ ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٤ : ٣ : ٣٣٨.
(٥) ديوان أبي تمام : تقديم : محي الدين صبحي ، دار صادر ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٩٧ :١: ٩٦.
(٦) تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف و المرابطين : إحسان عباس ، دار الشروق ، ط ١ ، الأردن ، ٢٠٠١: ٠٧.
(٧) الأندلسيون المواركة : عادل سعيد البشتاوي ، المقطم للنشر و التوزيع ، دط ، القاهرة ، ١٩٨٣ : ٢٢٢ .
* قرب القشتاليون اليهود وأولوهم مناصب مهمة ، كما جعلوهم سفراءهم إلى ملوك الطوائف – ينظر : تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين : ٢٢.

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(٨) مطمح الأنفس ، و مسرح التأنس ، في ملح أهل الأندلس : الفتح بن خاقان ، تح : محمد علي شوابكة ، دار عمار مؤسسة الرسالة ، ط ١ بيروت ، ١٩٨٥: ٣٨٩

(٩) الروض المعطار : الحميري ، مجلة التأليف ، مصر ١٩٣٧ : ٤٠ و ما بعدها.

(١٠) الذخيرة في محاسن الجزيرة: ابن بسام الشنتريني ، تح : سالم مصطفى البدري ، دار الكتب العلمية ، ط ١ لبنان ١٩٩٨ : ١: ٥٥٣.

(١١) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف و المرابطين : إحسان عباس : ١٤٧.

(١٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : أحمد المقري ، تقديم : مريم قاسم الطويل ، يوسف علي الطويل ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، لبنان ، ١٩٩٥ : ٦: ١٢١.

**البيذق : بيذق الشطرنج ، فرزنه و صار فرزانا و هي الملكة في لعبة الشطرنج ، شهمات : من اصطلاحات لاعبي الشطرنج- محيط المحيط : حاشية طبعة عبد الحميد: ٦: ١٣١.

(١٣) نفح الطيب : ٦ : ١٢٢.

(١٤) نفسه : ٦ : ٢٣٩-٢٤٠.

(١٥) نفسه : ٦: ٢٤٠.

(١٦) نفسه : ٦: ٢٤١.

(١٧) نفسه : ٦: ٢٤٢.

(١٨) نفسه : ٦ : ٢٤٢٥.

(١٩) نفسه : ٦: ٢٤٢.

***حين استنجد أهل الأندلس بالمرابطين قال يوسف بن تاشفين قولته الشهيرة " أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ، و لا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي " — المعجب في تلخيص أخبار الأندلس و المغرب: عبد الواحد المراكشي ، دار الكتب العلمية ، ط ٢ ، لبنان ، ٢٠٠٥ : ٩٢.

****أجاب المعتمد بن عباد من اعترض على التحالف مع المرابطين بقوله " والله لا يسمع عني أبدا أني أعدت الأندلس دار كفر " — تاريخ الفكر الأندلسي: آنجيل جنثاليث بالانثيا ، تر : حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية.

(٢٠) انتصارات يوسف بن تاشفين : حامد محمد الخليفة ، مكتبة الصحابة ، ط ١ ، الإمارات ، ٢٠٠٤: ١٥٣.

(٢١) الذخيرة : ١ : ٥٩٣.

(٢٢) نفح الطيب : ٦ : ٢٣٣.

(٢٣) ديوان المعتمد بن عباد ، تح : رضا الحبيب السويسي ، الدرا التونسية للنشر ، ١٩٧٨: ١٥٩.

(٢٤) نفسه : ١٦٨.

(٢٥) انتصارات يوسف ين تاشفين : ١٥٤.

(٢٦) نفسه : ١٥٤.

(٢٧) ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية: عن مقال للأستاذ جمعة شيخة — جامعة تونس - بعنوان النقد السياسي في الشعر العربي بالأندلس، منشورات جامعة عبد الملك السعدي ، تطوان ، ١٩٩٣ : ١٠٧.

(٢٨) ينظر المصدر نفسه : ٢٠٤ وما بعدها.

(٢٩) نفسه : ٢٢٩.

(٣٠) نفح الطيب : ٦ : ٢١٤.

(٣١) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: فاطمة طحطح ، مطبعة النجاح الجديدة ، ط ١ ، الرباط ، ١٩٩٣.

(٣٢) ديوان ابن الأبار ، تعليق: عبد السلام الهراس ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب ، ١٩٩٩: ٤٠٨-٤٠٩.

(٣٣) دراسات في الأدب الأندلسي: إحسان عباس ووداد القاضي وألبير مطلق ، الدار العربية للكتاب ط ٢ ، ليبيا/تونس ، ١٩٧٦ : ١٠.

(٣٤) ديوان ابن الأبار : ٣٥.

(٣٥) نفسه ، ٦ : ٢٢٤.

(٣٦) نفسه ، ٦ : ٢٤٣.

(٣٧) نفسه ، ٦ : ٢٤٣-٢٤٤.

(٣٨) نفسه ، ٦ : ٢٤٤-٢٤٥.

(٣٩) نفسه ، ٦ : ٣٠٤.

من إصدارات ٢٠١١ كتب

قراءة في تاريخ وحضارة أوربا "العصور الوسطى"

المؤلـــــــف:	أشرف صالح محمد سيد
تقـــــــديم:	أ.د.فتحي عبد العزيز محمد
التوزيــــــع:	شركة الكتاب العربي الإلكتروني –بيروت
الطبعة الأولـى:	إلكترونية، بيروت ٢٠٠٨
الطبعة الثانيـة:	ورقية، القاهرة ٢٠١١

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١١/١٥٦٤٥

يقدم هذا الكتاب قراءة لرحلة المجتمع الأوربي مع النظام الإقطاعي الذي ساد أوربا خلال الفترة من القرن التاسع وحتى القرن الرابع عشر، حيث كانت القواعد العامة للنظام تكاد تكون واحدة، لكن عند تطبيقها في دول أوربا المختلفة، أفرخت في النهاية أنظمة تختلف عن بعضها كل الاختلاف. فقد خرجت فرنسا من النظام الإقطاعي ملكية قوية، تمثلت في تعبير لويس الرابع عشر "أنا الدولة "، بينما خرجت إنجلترا "ملكية مقيدة"، الملك فيها يملك ولا يحكم، على حين خرجت ألمانيا من هذا النظام الإقطاعي دولة ممزقة بكل ما تعنيه الكلمة. وقد ركزت صفحات الكتاب على الدور الذي لعبته ألمانيا في التاريخ الأوربي الوسيط، متتبعة ذلك الصراع الطويل بين البابوية والإمبراطورية، من خلال خمسة مباحث؛ تلقي الضوء على المجتمع الأوربي في عصر الإقطاع، والدور الألماني في العصر الوسيط، وبرنامج الباباوات في السيادة الروحية على الكنيسة والسيطرة الزمنية على الدولة، بالإضافة إلى مشكلة التقليد العلماني في ألمانيا، وصولاً للحقبة الهوهنشتاوفنية في تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

دورية إلكترونية، مُحكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449